العبد الخديم:

نبذة عن حياته، وإطلالة على مشروعه

بقلم الباحث: عبد الحكيم امباكي منتقى[1]

هو الشيخ أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الكبير بن حبيب الله الأول بن محمد الخير نزيل جُلُفْ بالسنغال. وهو المشهور بالشيخ أحمد بامبا والعبد الخديم وأحمد الخديم وخادم الرسول أو خديم الرسول ، ولد سنة [1270ه/1853] في قرية جده "امباكي بَوُلْ" ، وتعلم القرآنَ في صغره وحفظه مبكرا على يد والده ، وبدأ تعلّم العلوم الشرعية والعربية عند عمه العالم المفسر صَمْبَ تُكُلُورْ كَهْ ، ثم انتقل إلى والده المعلّم القاضي يتعلم ويجتهد ، ويختلف إلى من حولهم من العلماء المجاورين لهم في بلاد السنغال وفي خارجها ليستفيد منهم كالقاضي الفقيه مجَخَتِ شاعر السنغال وأديبها ، حتى تبحّر في المنقولات والمعقولات ، فنصبه والدُه مدرّسا وأستاذا مساعدا ، في مدرسته الكبيرة التي كانت شبه جامعة إسلاميّة آنذاك يرحل إليها المسلمون من كل أقطار السنغال.

وبعد وفاة والده خلفه ابنه أحمد الخديم في المدرسة يعلّم ويؤدّب ويربّي المريدين في العلم والعمل والأدب والهمّة ، ويؤلف لهم من الكتب ما يتعلق بأمور دينهم في العقيدة السنية الصحيحة والفقه المالكي والتصوف والسلوك. ومن مؤلفاته: (تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار) ، و(تزود الشبان إلى اتباع الملك الديان) ، وهما منظومتان في العقيدة والفقه والتصوف ، ومنها أيضا كتاب (مواهب القدوس في نظم نثر شيخنا السنوسي) ، وهو منظومة مطولة في العقيدة مفيدة وصلت إلى ستمائة بيت وخمسين بيتا (**650 بيتا**). وكتاب (الجوهر النفيس) وهو منظومة مطولة أيضا في الفقه المالكي مهمة نظمها وألفها في وقت مبكر جدا في حياة والده ، وقبلها والده ورضي عنها حتى أنه بنفسه درّسها بعضَ أولاده إخوةَ المؤلف. وقد وصلت إلى ستمائة بيت وستة وسبعين (**676 بيتا**).

وله أيضا كتاب (مسالك الجنان) وهو منظومة مطولة أيضا غاية في تقرير حقائق التصوف وانتقائها لبها ولبابها وصفوة السلوك الإسلامي السني الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط على حد تعبيره حينما قال في بيت من أبيات الكتاب (مسالك الجنان):

ولا تَكُنْ مُفَرِّطًا أو مُفْرِطَا

بَلِ اسْتَقِمْ في سُنَّةٍ وأقْسِطا

قد جمع فيها وأوعى وحرّر فيها وأبدع ، وقد وصلت أبياتها إلى ألف بيت وخمسمائة وثلاثة وستين بيتا (**1563 بيتا**). وله أيضا كتاب (منور الصدور) و(ملين الصدور) و (جالبة البرور) و(زاد ذوي التعلم) كُلُّها في التصوف والسلوك الإسلامي السني القويم. كما أن له في علم النحو والعربية كتاب (سعادة الطلاب وراحة طالب الإعراب) وهو منظومة سهلة ميسرة ومفيدة ، كما أنجز في علم التصريف شرحا لكتاب (نزهة الظريف في علم التصريف).

وقد جُمِّعَتْ له مجموعاتٌ ودواوينُ ضخامٌ فيها كتبه التعليمية ومنظوماته وفتاواه الفقهيّة والتوجيهية الإرشادية الدعوية السلوكية التربوية وتفاسيره القرآنية المهمة المنهضة وشروحه الحديثية النبوية النافعة المفيدة ، منها ما نشر وطبع باسم (ديوان العلوم الدينية) وآخَرُ باسم (من فتاوى الشيخ أحمد بامبا). كما أن له أيضا مئاتٍ ومآتٍ من القصائد والأشعار والمنثورات في المدح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

[1] باحث في سلك الدكتوراه ، بجامعة محمد الخامس / الرباط.

وقد نفاه المستعمر الفرنسي إلى جمهورية (الغابون) التي في جزيرة بعمق إفريقيا بعيدا عن السنغال ، بتهم مصنوعة وجَّهها المستعمر إليه مع أعوانهم من بني جلدته من السنغاليين آنذاك فقط من أجل تفريقه وفصله عن مجتمعه وعن أتباعه ومريديه ولتوقيف دعوته التجديديّة الدينية الإسلامية الإصلاحيّة الحضارية الشاملة التي كان يقوم بها ، فأقام هنالك ثمانية أعوام إلا قليلا.

ويسمي الشيخُ في اصطلاحه هذا النفيَ بالغيبة البحرية ، ويقول إنه برحلته هاته أو غيبته البحرية الجزرية هذه وفي أثنائها ، جاهد نفسَه حق الجهاد لوجه الله تعالى ، وعبدَ اللهَ تعالى ، وخَدَمَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتأليف قصائد وأمداح وصلوات واتباعه والاقتداء به حق الاتباع ظاهرا وباطنا قلبا وجسدا؛ حتى نال بذلك في الله سبحانه وفي رسوله صلى الله عليه وسلم ما نال من الحقائق الإلهية والأسرار الملكوتية والأنوار الجبروتية والمقامات المحمدية الشريفة وما إلى ذلك من الأمور التي يقف على شواهدها من بحث واطلع وقرأ بإمعان على دواوينه الشعرية والنثرية التي كتبها بعد ذلك كديوان (الفلك المشحون) و(ديوان الفيوضات الربانية) وديوان (سلك الجواهر) وديوان (القصائد المطرزة بالآيات القرآنية) و(ديوان الأمداح النوبية) وديوان (سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين) وغيرها الكثير.

وقد صرَّح بكثير مما عاشها من شدائد ومحن وبما لاقاه من كرم الرب تعالى وتأييده الدائم المستمر له في تلك المِحَنِ بأشكالٍ وطرق ربانية عجيبة مختلفة ذكر بعضَها في كتابه: (**جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف**).

وهكذا رجعوا به بعد السنين الثمانية إلا قليلا كما سبق إلى وطنه السنغال ، ثم بعد أشهر قليلة أعادوا نفيَه مرّة ثانية بِتُهَمٍ أخرى شيطانيّة ظُلْمِيَّةٍ مخلوقة إلى أراضي (موريتانيا) بجوار السنغال ، فأقام هنالك أيضا خمس سنوات ، جاءته فيها الفتوحاتُ الإلهيَّةُ والمواهبُ الربانيّة من العلوم والمعارف والمكاشفات والكرامات بين أولياء تلك الأرض الشنقيطية الطيبة وصلحائها وصوفيّتها (من قادريَّةٍ وشاذليَّةٍ وتيجانيَّةٍ) وعلمائها وفقهائها وشعرائها وأدبائها وخواصِّها وعوامِّها ، مَن بايعه منهم ومن لم يبايعه ، حتى أطبقوا واتفقوا على لسان واحد وكلمة واحدة عن أدلة واضحة وبراهين ساطعة في قبول ولاية الشيخ أحمد الخديم ووراثته الكبرى بعلمه وإمامته ورئاسته فضلا عن كرمه وسخائه وجوده على خلق الرحمان بكل ما له بدءا بنفسه وعلمه وماله وجاهه (والجود بالنفس أغلى غاية الجود) ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ويقف عليها الباحث عن الحقيقة إذا اطلع على دواوينهم التي كتوبها في مدح الشيخ أحمد الخديم وقد جمعت بعضُها وهو كثير ، فطبعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمكلة المغربية سنة 2005م.

هكذا قد خسر وخسأ المستعمر النافي هذه المرة كما قد خسر في المرة الأولى فأعادوه إلى السنغال مرة ثانية ففرضوا عليه إقامة جبريّة في قرية (اتيين) خمس سنوات لا يخرج ولا يتحرك ولا يأتيه أحد إلا بشروط وضوابط ضيقة قد وضعوها ، ثم لإقامة جبرية أخرى في مدينة (جربل) في حدود خمس عشرة سنة قد خففوا تلك الضوابط والشروط على الشيخ تخفيفا وسالموه مُسالَمَةَ خاسرٍ فاشلٍ خيِّبِ الظنّ وفاقد الأمل بعد كل ما فعلوه من أنواع التعذيب والنفي ومحاولات القتل فُرادى وجُمَاعَ بصيغٍ عسكرية ظاهرة متبجِّحة أو صيغ مدنية سريِّة متخفّية في مواجهة من لا يعرف في طول حياته إلا الحلم والسلام ولا يدعو أبدا إلا إلى الهدوء والسكينة والعافية لكن

بالثبات أيضا على **الإيمان الراسخ** بالتوحيد الخالص المُخَلِّص ، **والإسلام القويم** بالعلم والفقه الراشد المرشد إلى الأعمال الصالحة ، **والإحسانِ المَجيدِ** المُجيد بالتصوف السالك المُوصِل إلى الأحوال العالية والحقائق الإلهية العلوية والمقامات المحمدية الشريفة بالأخلاق الكريمة والآداب الحسنة المرضيَّة ظاهرا وباطنا ، قلبا وقالبا.

قلنا إنهم سالموه في فترة الإقامة الجبرية بمدينة (جربل) لكن أيضا كانت مع شدة المراقبة والملاحظة دائما خوفا منه ومن جماعاته وأنصاره ومُحِبّيه المُنتشرين في كل الآفاق آنذاك المؤمنين المتحرِّرين المريدين لوجه الله تعالى الواحد الأحد الفانين السالكين المتوجهين القاصدين المستقيمين على تفاوت درجات قصدهم واستقامتهم المختلفة كما هو سنة الله في الأرض وقانون الحياة في الكون ، والمستعدين أيضا كلهم لكل تضحية من أجل إقامة الدين وحفظ النفوس والأعراض تحقيقا لكرامة الإنسان ، وتحرير العقول وتنمية الأموال لصالحِ العامِّ والخاصِّ في المجتمع ، والقريب والبعيد في الأمة؛ خدمةً للإنسانية وإعلاء لكلمة الله العليا في ذلك كله واستقلالا عن كل تبعية للمستعمرين والملوك الجبابرة في صغيرة أو كبيرة فضلا عن غيرهم من الناس ، إلا اللهَ ورسولَه وتعاليمَهما ، كما يُعلِّمُهم ويُربّيهم ويُرقّيهم إلى مكارمِها أستاذُهم ومُعلِّمُهم وشيخُهم وأنيسُهم وقدوتُهم وحبيبُهم المُفضَّل وهو العبدُ الخديمُ.

وهكذا كان في إقامته الجبرية هذه المستمرة حتى ارتحل فيها إلى جوار ربه ، راضيا مَرْضِيًّا مُرْضِيًا ، وشهيدا في سبيل الله ، قدس الله أسراره وقاد له ما اختاره له ورضي له وأحب.

وقد رثاه بعده ، كما مدحه قبلُ وبعدُ ، من العلماء والشعراء والأدباء السنغاليين والشنقيطيين الموريتانيين وغيرِهم في العالم عددٌ كثيرٌ جدا لا يعدون ولا يحصون ، جمعت دواوينُ بعض منهم ، كدواوين شعراء أهل الزوايا الموريتانيين ، وديوان الشعراء السنغاليين ، وديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، وغير ذلك.

وقد توفي الشيخ الخديم رضي الله عنه سنة [1346هـ/1927م] في مدينة (جربل) بالسنغال ، فنقل إلى المدينة التي أسسها من قبل وسمّاها (طوبى) ، فووري جثمانُه فيها ، ومازال ضريحُه هنالك يُزار حتى الآن.

كما أن المدينة أصبحت عامرة وثانية أكبر مدينة في السنغال من ناحية السكان والوزن الاقتصادي كما أنها مستقلة في نظامها التدبيري الإداري باعتبارها مدينة دينية إسلامية تدور على مدار الإسلام وتعاليمه في صغيرة وكبيرة قدر الطاقة والجهد والاستطاعة؛ قال تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموت إلا وأنتم مسلمون**) [سورة آل عمران: 102].

وقال: (**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**) [سورة التغابن: 16].

وهي من هذه الناحية هي الأولى في السنغال وفي إفريقيا إن وجد في أماكن أخرى من العالم حسب علمي ، والله تعالى أعلم.

وله ملايين من الأتباع في السنغال وفي غيرها من دول العالم بكل القارات الخمس. كما أن خلفاءه وذريته وأتباعه ما زالوا على دربه يتعلمون ويعلمون ويجتهدون ويصلحون ويدعون إلى دين الله الإسلام بالسنة النبوية المطهرة ، ويُربّون الناس على العلم والعمل والأدب المرضي قدر الطاقة والجهد والاستطاعة أيضا على ممر التاريخ ، لكن ينبغي على طالب الحق الباحث عن الحقيقة أن يرشُد ويتنبه إلى

ضرورة القدرة على التمييز في الناس وأنهم كما هو معروف في قوانين الكون وسنة الحياة قديما وحديثا وفي مختلف الأديان والمذاهب والنظم ليسوا سواء منهم العالم والجاهل ، ومنهم العامل والعاطل ، ومنهم المؤمن والمنافق ، ومنهم القوي والضعيف ، ومنهم المصلح والمفسد ، ومنهم الخير والشرير ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وينظر لمن أراد التوسع في حياته وسيرته وفكره وتربيته وآثاره ونموذجيته (منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم) لابنه العلامة الشيخ محمد البشير ، وكتاب (إرواء النديم من عذب حب الخديم) لتلميذه العلامة الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، و(النفحات المسكية في السيرة البكية) للشيخ العلامة تلميذه محمد عبد الله بن عبيد الرحمان العلوي الشنقيطي ، و(حقائق عن حياة خادم الرسول وحركته الإصلاحيّة) لحفيده المصلح البارع الشيخ مصطفى لوح بن المعلم المقرئ الأكبر الشيخ عبد الرحمان تلميذ العبد الخديم ومريده ، و(خلاصة عن حياة المربي الحكيم) مع كتاب (الشيخ أحمد الخديم القائد الرباني) كلاهما لحفيده الفقيه الفرضي العالم الكاتب الخطيب الإمام أخي الكبير الشيخ أحمد خادم امباكي بن الشيخ محمد المنتقى حفظهما الله وأبقاهما.

تمهيد:

يقول الشيخ محمد البشير بن الشيخ أحمد الخديم في كتابه (منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم) ، في سياق التعريف بالشيخ أحمد الخديم وبدايته مع والدته السيدة جارة الله مريم بوصو وعلاقة هذه الأخيرة بربها ، وبقرينها أي زوجها الشيخ الإمام محمد بن حبيب الله[2] والد الشيخ أحمد الخديم ، ما لفظُه:

"وكانت الوالدةُ[3] جارةُ الله مريمُ صالحةً عفيفةً ديّنةً ، كثيرةَ الصلاةِ والصومِ والصدقةِ ، مستسلمةً لربها ، قائمةً بواجبات دينها ، بينها وبين ربها ، وفيما بينها وبين الشيخ الإمام قرينِها[4]. وكانت تُربّي أولادَها على المروءة والدين والطهارة. وكثيرا ما تَحكي عليهم حكاياتِ الصالحين.

وكان شيخُنا[5] من ذكائه العجيب وفطرته السليمة ، يُصغي لتلك الحكايات ويحفظها ، ويتكلّف – وهو لم يُكمّل التمييزَ – العملَ بما قدر عليه منها. حتى حكى عليَّ بعضُ من أثق به من الأقارب أنه حضرها[6] يوما تقول: (من دأب الصالحين قيام الليل) ، فصار من هذا الحديث كلَّما جنَّ الليلُ يقوم — وهو لم يَدخلِ

---

[2] – هو أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الكبير بن حبيب الله الأول بن محمد الخير نزيل جُلفْ بالسنغال. وهو مشهور بالشيخ أحمد بامبا والعبد الخديم وأحمد الخديم ، ولد سنة [1270ه/1853] في قرية جده "امباكي بَوُلْ" ، وتعلم القرآنَ في صغره وحفظه مبكرا على يد والده ، وبدأ تعلّم العلوم الشرعية والعربية عند عمه صَمْبَ تُكُلُورْ كَهْ ، ثم انتقل إلى والده المعلّم القاضي يتعلم ويجتهد ، ويختلف إلى من حولهم من العلماء المجاورين لهم في بلاد السنغال وفي خارجها ليستفيد منهم كالقاضي مجخَتِ شاعر السنغال وأديبها ، حتى تبحّر في المنقولات والمعقولات ، فنصبه والدُه مدرّسا وأستاذا مساعدا ، في مدرسته الكبيرة التي كانت شبه جامعة إسلاميّة آنذاك يرحل إليها المسلمون من كل أقطار السنغال.

[3] – يتحدث هنا عن السيدة جارة الله مريم في سياق ترجمة ولدِها وابنِها الشيخِ أحمدَ الخديم رضي الله عنهما.

[4] – وهو الإمام القاضي العلامة الشيخ محمد بن حبيب الله البكي المعروفُ بمَامْ مُورْ أَنْتَ سَالِي وهو زوجُها وشيخُها.

[5] – يعني به الشيخ أحمد الخديم بن السيدة جارة الله مريم ، المترجَم له في كتابه المذكور "منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم".

[6] – أي الشيخُ حضرَ والدتَها يوما تقول.

المكتبَ[7] – ويخرج إلى ساحة القرية منفردا ، يقوم الليلَ للتعوّد بعادات الصالحين كما سَمِعَ[8] !"[9].

تحليل:

إننا من خلال هذا النص الغني نجد أن السيدة مريم جارة الله مريم بوصو والدة الشيخ أحمد الخديم كانت عفيفةً وصالحةً من الصالحات بمعنى الكلمة ، كما قال تعالى في القرآن الكريم: (**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ** الله) [سورة النساء ، الآية: 34]. تلك الصوالحُ من النساء هُنّ القوانتُ اللواتي يخدمن أزواجهن ويُطِعْنَهم ويقمْن بما عليهن لهم ، وكما قال الإمام المفسر جار الله الزمخشري رحمه الله في الكشاف: هُنّ الحوافظُ "لمواجبِ الغيب إذا كان الأزواجُ غيرَ شاهدين لهنَّ حِفْظَهنّ ما يجب عليهنّ حِفظَه في حال الغيبة ، من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: "**خيرُ النساء امرأةٌ إن نظرتَ إليها سرَّتْكَ ، وإن أمرْتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْتَ عنها حفِظتْك في مالها ونفسها**" [رواه أبو داود 1664]"[10].

كانتِ السيدةُ تجسّد هذه المعاني والمواصَفاتِ مطيعةً لزوجها وشيخِها ، قائمةً بواجباتها بينها وبينه ، حافظةً له في غيبه ، نافذةَ الأمر وحازمةً ، عازمةً على فعل كل شيء يُرضي زوجَها ، مُدْمنةً ومديمةً لإرضائه حتى تلبَّبَتْ بذلك واستتبّ لها الأمر وتَهَيَّأ واستقامَ. ولقد صدق الشاعرُ حينما قال في حقِّها [البسيط][11]:

مطيعةً ربَّها والشيخَ سـيدَّها
أرضتْهُ أفعالُها لـه إدمـانا

رواية:

ومما يُروى في صدق عُزْمِها وطاعتِها وخدمتها لزوجها وإرضائها إياه وتضحيتها أن الشيخ محمد زوجها استعان بها ليلةً بعد صلاة العشاء في إقامة حَظِيرةٍ أو جِدارٍ خَشَبيٍّ ساقطٍ من جُدُرِ الدار الخشبية بسبب الرياح القَبْلِيّة للأمطار ، وفي أثناء ذلك بدأت الأمطارُ تتساقط فدخل الشيخُ في بيته ، أمّا السيدةُ مريمُ فاستمرّتْ قابضةً آخذةً بذلك الجدار الذي كانا يُصلحانه ، وسطَ الأمطار؛ خوفا من سقوطه مرة أخرى ، إلى وقت صلاة الفجر ، حيث خرج الشيخُ من بيته إلى المسجد فتراءى شخصا عرف آخرَ الأمر أنه السيدةُ مريم فأصابتْه دهشةٌ وتحيّرٌ مما رأى ، وتعجَّب بهذه الأُعْجُوبةِ العُجَّابِ أيما تعجّب ، فدعا اللهَ تعالى لها ولدا صالحا **يكون تلاميذُه ومريدوه كالنجوم في الغزارة والكثرة والتعدّد**[12]!

دراية:

وهذا النوع من الفعل الأخلاقي الذي فعلته السيدةُ مريم بصدد هذا الحدث هو الذي يسمّيه الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمان بـ(**الشذوذية الإيجابية**)؛ حيث يأتي الرجل "**أفعالا تصادم المألوفَ من تصرّفات الجمهور**، وتخرج عن القواعد المقررة

---

[7]- أي الكُتَّاب ، يقول صاحب مختار الصحاح: "(الكتَّاب) أيضا و(المكتب) واحدٌ والجمع (الكتاتيب) و(المكاتب)". [ص 527]. ويعني به الكَاتِبُ المدرسةَ القرآنيّة.

[8]- أي كما سمع ذلك من والدته.

[9]- منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم ، ج.1 ، ص. 34.

[10]- الكشاف: ص. 264.

[11]- ينظر البيت في كتاب المناقب (جلوري سخن جارة) ، ص. 18.

[12]- ينظر
La Vie de Cheikh Ahmadou Bamba en BD, Cheikh Fatma Mbacké, Tome 1, PP. 52-53.

في مجاله التداولي (...) **إذكاء للوعي وإيقاظا للهمّة** (...) وتـُحيي أو ترسّخ قيمَ (**الصدق**) و(**العمل**) و(**العلم**) و(**الحكمة**)..."[13] ، وغيرها من أمثال هذه القيم التي من أجلها ينجز مثل هذا الفعل أو الحدث الإشاري.

استنباط واستنتاج:

ويمكننا أن نذكر هنا من آثار الدعاء المأثور ومن المواهب التي وهبها الله تعالى للسيدة جارة الله مريم بوصو بفعل عملها مع قرينها الشيخ الإمام من لدن الحق المنان المولى جل وعلا الرحمان ، ولدَها الرضيَّ الوليَّ الصالحَ الذي دعا لها زوجُها بصدد هذا الحدث التاريخي العظيم ، بحيث **نرى** اليومَ **أتباعَ** ولدها الشيخِ أحمدَ بامبا[14] المعروف بعبد الله وخديم الرسولِ — صلّى الله عليه وسلّم- **ومريديه منتشرين** في كل أصقاع العالم - بدون استثناءِ قارَّةٍ من القارّات الخمسة - ، "**وتعلّقتْ قلوبُ الملايين في السنغال به**"[15] ، كما قال صاحب كتاب (**من أقطاب الأمة في القرن العشرين**) الشيخ خالد محمد ثابت المصري الذي ذكر الشيخَ أحمدَ الخديمَ ضمن هذا الكتاب ثالثَ الثلاثةِ الذين اختارهم متفردين أقطابا مصلحين للأمة في هذا القرن.

الدعاء سلاح المؤمن حقا:

هذا ، فضلا عن أنَّ الشيخَ الخديمَ نفسَه قد دعا اللهَ تعالى — والدعاء مستجابٌ بفضل الله المنان بشهادة الواقع وقرائن الأحوال- أن يهبَ له **أنصارا** ينصرونه في البلدان والأمصارِ في إعلاء كلمة الله العُليا الواحدة الحقّة وتجديدِ الدين الإسلاميِّ بالسنة النبوية المطهّرة ، حيث قال وهو يدعو ربّه[16] :

وهبْ لي النُّصْرةَ في البُلدانِ

جميعِها يا خالقَ الأزمانِ

وصَيِّرِ الجميعَ لي أنصارَا

بجاهِه ورُضْ ليَ الأمصارَا

كما نرى في كتاباته يقول إن هدفه ونيّتَه هما تجديدُ الدين الإسلامي مع أتباعه الذين علّمهم وربّاهم وهيّأهم في سبيل ذلك ، حيث يقول[17] :

للمصطفى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ

سُنَّتَهُ الغرّآ وإني أحمدُ

دينٌ سِوى إسلامِه لا يُحْمَدُ

عند الإله وبه نُجَدِّدُ

فعبّر عن ذلك بضمير الجمع المتكلم في فعل "**نجدد**" كما رأينا ، وكما رأيناه أيضا يصرّح بذلك في قصيدة أخرى بدعائه اللهَ سبحانه أن يهبه (**ذرية طيبة صالحة مجدِّدين مجتهدين**)؛ **وجماعةً مستفيضةً ممكَّنَة متبحِّرين "متأهّلين لتدريس الفنون**"[18] على حد تعبير العلامة الرباني العبقري الشيخ الفقيه الفلكي المؤقت المقرئ الشاعر الأديب أحمد البوصوبي تلميذ الشيخ الخديم ومريدُه وابنُ خاله في (**رسالته التي وجهها إلى حاكم السنغال في فترة الاستعمار الفرنسي مسيو بروفيه**) بيانا منه وتوضيحا لمهمة الشيخ الخديم التجديدية الدينية الإسلامية الحضارية؛ التي تنطلق من التدريس والاجتهاد في العلوم النافعةِ المفضيةِ إلى الأعمال

---

[13] - من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر ، طه عبد الرحمان ، ص. 85.

[14] - سبقت ترجمته في بداية البحث.

[15] - من أقطاب الأمة في القرن العشرين: محمد خالد ثابت ، ص. 185.

[16] - البيتان من ديوانه المسمّى "بالفلك المشحون".

[17] - البيت من قصيدته التي مطلعها: "الحمد لله الذي قد جاد لي بما به شكرته من نائل".

[18] - رسالة الشيخ امباكي بوصو إلى حاكم السنغال المسيو بروفيه: ص. 3.

الصالحة البانيةِ العامرةِ للحضاراتِ الإنسانيَّةِ المختلفةِ على ممر التاريخ والزمان.

وفي ذلك يقول الشيخ الخديم داعيا والدعاء سلاح المؤمن:

وهب لنا ذريّةً تديـمُ
العملَ الصالحَ يا قـديـمُ

ويقول[19]:

ذريـــــــة طيبـة تجـدِّدُ
نهجَ النبيِّ المصطفى تجتهدُ

هذا ، مع أنه أعرب هو بنفسه عن أن جميعَ المسلمين من جنٍّ عصرِه تعلّقوا به لوجه الله تعالى وصاروا من أتباعه ومريديه في قوله[20]:

بِيَ تـعلّقَ الذين أسلَمُـوا
مِنْ جِنِّ عَصْرِي دُونَ مَنْ لَمْ يُسلِمُـوا

ويجدُر هنا أن نعرف أن الجنَّ منهم صالحون ومؤمنون ومسلمون ، ومنهم دون ذلك كما أقرّوا هم أنفسهم بذلك في محكم تنزيل ربّنا تعالى ، حينما قالوا: ﴿وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴿١١﴾﴾ [سورة الجن] ، وقولهم أيضا فيه: ﴿وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴿١٣﴾ وَإِنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴿١٤﴾﴾ [سورة الجن].

كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء:

ولا يكون ذلك إلا من باب (كرامات الأولياء) المتفرعة بدورها عن حسن اتباع الأنبياءِ أصحابِ المعجزاتِ ، علما بأن الجن مع الإنس ، كما قال الشيخ ابن تيمية الأصغر رحمه الله في كتابه (**الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان**): هم "على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجنَّ بما يأمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيّه ، ويأمر الإنسَ بذلك ، فهو من أفضل أولياء الله تعالى ، **وهو في ذلك من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونوّابه**"[21] ، إلى آخر أحوال الجن مع الإنس التي ذكرها ابن تيمية في كتابه المذكور.

فعدّ ابن تيمية في هذا النص أعلاه تلك الحالَ الأولى — كما رأينا — من أفضل كرامات الأولياء أو مما **يجعل صاحبَها الوليَّ من أفضل أولياء الله تعالى بل من خلفاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم ونوّابه!**

وهذا غايةُ تكريمِ الله تعالى لعبده ووليّه كما قال ابن تيمية: "وإنما غاية الكرامة لزومُ الاستقامة ، فلم يُكرِم الله عبدا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقرّبه إليه ويرفع به درجته ، وذلك أن **الخوارق منها ما هو من جنس العلم ، كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك ، كالتصرفات الخارقة للعادات** ، ومنها ما هو من جنس الغنى ، من

[19] – البيت من قصيدته التي مطلعها: "يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا ربنا يا حبنا".
[20] – ورد البيت في كتاب إرواء النديم ، ص. 217.
[21] – الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان: ابن تيمية ، ص. 196.

جنس ما يُعطاه الناسُ في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى"[22].

وذلك إذن كرامةٌ من كرامات ولد السيدة مريم العبدِ الخديم التي قال فيها: "**ومن أسرار غيبتي[23] أنّ مَنَّ اللّهُ عليَّ بسبعِ كراماتٍ معجزاتٍ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي:**

1- **غَلَبَ لي اللّهُ أعدائي قبل ظهوري ،**

2- **وَهَبَ لي علما لم يكن من التعلّم ،**

3- **وباهى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم كلَّ الأنبياء بِغُربَتي عَشْرَ سِنِينَ وخِدْمَتي له فيها الخدمةَ الخالصةَ ،**

4- **وحَبَّبَني اللّهُ تعالى إلى كلِّ سعيدٍ ،**

5- **وأيّسَ إبليسَ وكلَّ لعينٍ معه مني ،**

6- **وحببّني تعالى إلى الملائكة الكرام ،**

7- **وحبّبني إلى مؤمني الجنِّ ، والمسلمون منهم في زمني تعلّقوا بي لوجه الله**"[24].

هذا ، مع العلم بأن أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن كلَّ ما يصحّ أن يكون معجزةً للأنبياء يصحّ أن يكون أيضا كرامةً للأولياء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**العلماء ورثة الأنبياء**" [رواه أبو داود] ، في العلم والولاية والكرامة وغير ذلك.

وعلى هذا يقول الإمام ابن تيمية: "وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم"[25].

وهؤلاء الأولياء هم أولياء الله الذين يقول فيهم الله تعالى في القرآن: (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤).

وصرّح الله سبحانه وتعالى بالصفات التي هي الفرقانُ بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان. كما ورد في الحديث القدسي الشريف قوله تعالى: "**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته. ولا بد له منه**" [متفق عليه].

صفات الأولياء وخصائصهم:

فبهذا نعرف أن أولياء الله تعالى هم المتصفون بالإيمان والتقوى ، "**فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون**

---

[22]- الفرقان: ص. 187.

[23] - يقصد بالغيبة هنا رحلته إلى دولة "الغابون" لما نفاه إليها الاستعمار الفرنسي من أجل عرقلة دعوته الإصلاحية والتجديدية بتهم وجهها المستعمر إليه ، وأقام هنالك ثمانية أعوام إلا قليلا كما تقدم ، ويقول الشيخ إنه برحلته هاته أو غيبته وفي أثنائها ، جاهد نفسه ، وعبدَ الله ، وخدم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتأليف قصائد وأمداح وصلوات ، نال بها ما نال. [يراجع كتابه: جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف].

[24]- إرواء النديم: ص. 216.

[25] - الفرقان: ص. 155.

ولايتُه لله تعالى ، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى كان أكمل ولاية لله تعالى"[26] ، كما أن من خصائصهم أيضا الاقتداءَ بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث "يفعلون ما أمر به وينتهون ما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بيّن لهم أن يتبعوه فيه ، **فيؤيّدهم بملائكته وروحٍ منه ، ويقذف اللهُ في قلوبهم من أنواره** ، ولهم الكرامات التي يكرّم الله بها أولياءَه المتقين".

حُجِّيَّة الكرامة وحاجِيَّتُها في الدين وأهله:

ويقول صاحب الفرقان عن أسباب ظهور الكرامات من الأولياء: "وخيارُ أولياء الله كراماتُهم **لِحُجَّة في الدين أو لِحاجَةٍ بالمسلمين** ، كما كانت معجزاتُ نبيّهم صلى الله عليه وسلم!"[27].

طبقات الأولياء:

هذا مع العلم بأن "أولياء الله على طبقتين: **سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون** وذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز"[28] منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فاطر]. وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٩﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٠﴾ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١١﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١٣﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الواقعة]. وقوله أيضا: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾. [سورة الواقعة]. وغير ذلك من آيات.

أدلة ولاية العبد الخديم وبراهينها الساطعة:

وإذا تقرّر هذا الذي تَقدّم يلزم منه أن نقف على أدلة ولاية العبد الخديم وبراهين اتصافه **بصفات** أولياء الرحمان التي هي (الإيمان والتقوى والمحبة والتقرّب) ، ومدى توفّر **خصائصهم** التي هي **الاقتداء التامّ** بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم لديه.

منهج التعرف على ولاية العبد الخديم:

ولا تكون معرفةُ ذلك إلا من خلال تتبّع أقواله هو نفسه وعقائده ومواقفه وأعماله وآثاره ضمن كتاباته وفي تاريخه وسيرته ، مع النظر في علاقاته بأهل زمانه وعصره من أهل العلم والمعرفة والعمل والصلاح ومدى تقبلهم وإطباقهم على ولايته وإمامته ورئاسته.

المرحلة الأولى: (مرحلة التزود والتسلح الإيماني الواثق)

وعلى هذا نرى أنه في أُولَيات كتاباته وحياته كان دائمَ الدعاء لله سبحانه وتعالى بأن يتولّاه ويكون وليَّه ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٦﴾﴾ ، وأن يُسلكه طريق أوليائه الصالحين ، لأن الدعاء هو أول شيء يُبدأ به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**الدعاء**

---

[26] – المصدر نفسه: ص. 28.
[27] – المصدر نفسه: صص. 154- 155.
[28] – المصدر نفسه: ص. 29.

مخ العبادة" [رواه الترمذي] ، و"**الدعاء سلاح المؤمن**" [رواه الحاكم].

وفي ذلك يخاطب ربَّه ، ويقول بعد تقديم التوبة من كل الذنوب والعيوب "**كن لي يا وليي في الدنيا والآخرة ، تولّني في الدنيا وفي الآخرة ، وأكرمني ، وبشّرني فيهما بما أكرمت وبشّرت به الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يا مالك الدنيا والآخرة ارحمني فيهما وفي البرزخ وحقّق رجائي ولا تقطعه...**"[29]. ويقول أيضا[30]:

ولي كن ربا وليا ونصـــيرْ

ولجميع المسلمين يا بصيرْ

ويقول:

وكن وليّي في الحياة ولدى

موتي وفي القبر وفي الـحشر غـدا

ويقول:

فلي كن حصنا ودأبا يـا صمدْ

تَوَلَّني ولا تَكِلْنـي لأحـدْ

ويقول:

فلا تكلني لكـلاءة أحدْ

غيرَك بل كن لي وليًّا يا صمدْ

ويقول:

وبي اسلُكَنْ ربِّ طريقَ الأولـيآ

النـجباءِ المخلصين الأصـفيآ

ويقول:

وهب لِيَ الذكرَ بشكر كلَّ حِـنْ

وعُدَّني من جملة المقرَّبـينْ

المرحلة الثانية: (مرحلة الانطلاق والتوجه الإسلامي الصادق)

وبعد هذا الدعاء الذي دعاه اللّهَ سبحانه لأن يتولّى أمرَه ويُسلكَه طريقَ الأولياء ، نراه في أبيات أخرى يتوجّه إلى الله تعالى بنية صادقة ، ويعبّر عن إرادته وعزيمته على سلوك طريق الأولياء بعد ذلك الدعاء ، الأمر الذي يدل على أن الله سبحانه أجاب دعاءَه ، حيث يقول يناجي الله تعالى ويوكّد له ربوبيّتَه وألوهيّتَه وجميعَ صفاته الأزليّة القائمة بنفسه ، ويحققها تحقيقا كاملا لا يدع للشاكِّ الشكَّ في إيمانه وتوحيدِه ربَّه توحيدَ المؤمنين الواثقين المطمئنين بربهم وفي ربهم حق الثقة والاطمئنان.

وزيادة على ذلك ، نجده يُقِرّ أيضا ويعترف ويتأكد ويتحقق هو بعبوديته وفقره مع توجّهه واستسلامه وإسلامه وجهَه لله تعالى وإعطائه كليّتَه له بلا استثناء شيء من أموره حتى نفسه وأهله وولده ومسكنه ودينه ودنياه وأخراه ، الأمر الذي يدعوه إلى التصريح بعدم ميله إلى غير الله تعالى وبعدم لجوئه إلى أي شيء ينافي الاستغناءَ بالله أو الشك والارتياب في ربوبيّته تعالى ، كمدافعة المخلوقين أو منازعتهم أو المكابدة والمحاسدة والمقاطعة وغير ذلك مما يشبه مزاحمة الرب في ربوبيته أو ألوهيته. وذلك مع نية الاقتداء دائما بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم واتباع سنته واقتفاء آثاره ، امتثالا لله تعالى واجتنابا لنهيه.

دليل أول:

ومن أدلة ذلك وشواهده مناجاته في مقدمة كتابه المسمى بـ (مقدمة الخدمة): "**اللهم إني مقرٌّ لك في**

---

[29] – من مقدمة كتابه أو صلواته المسماة بـ"مقدمة الخدمة".

[30] – الأبيات الآتية من قصيدته مطلب الفوزين إلا البيت الرابع ، فهو من قصيدته المسماة بـ "السلسلة القادرية".

هذا اليوم وبعده بالألوهيّة ، وبالوحدانيّة ، وبالنفسيّة ، وببقيّة السلبيّة ، وبالمعاني ، وبالمعنويّة ، وبالربوبيّة ، وبالأسماء الحسنى ، وبأنك مالكُ كلِّ شيء ، وخالقُ كل شيء ، والعالمُ بكل شيء ، والحاكمُ على كل شيء ، والقادرُ على كل شيء (...)

اللهم إني مقرٌّ لعبدك ورسولك وحبيبك سيدي ومولاي ووسيلتي إليك من هذه الساعات إلى وفاتي ، وقرة عيني محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة ، وبالصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، وبأنه أفضلُ الخلق جميعا ، وبأني جعلتُه اليوم وغدا وسيلتي وقدوتي ، وبأني رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبيا ورسولا ، وبالقرآن دليلا ، وبالكعبة قبلة ، ومقرٌّ لك بأنك خيرُ الرازقين ، وأكرمُ الأكرمين ، وأرحمُ الراحمين ، وبأنك الغفورُ الرحيم الشكور الجواد الكريم البر الواسع النافع الغني المغني..."[31].

دليل ثان:

ومن ذلك أيضا قوله في قصيدته (مطلب الفوزين)[32]:

هذا وإني اليوم يا وهّـــــابُ
غيرَك في الدارين لا أَهــابُ

وإنني يا برُّ يا كـــــــريمُ
داعٍ وعــن شكرك لا أريـــمُ

منذ جذبتَني إليك يا مُعيــنْ
عنايةً منك إليك لــتـعـيــنْ

فقمتُ مجذوبا إليك مِــنْكَا
بك عليك ورضتُ عَنْكَــا

مفوِّضا مسلِّما إليــكا
أمري مُهاجِرا لِما لَدَيْكَــا

ثم إليك لا إلى سواكا
قد سرتُ لمّا أَجِدْ شَرْوَاكَا

دليل ثالث:

وهو قوله أيضا:

يا برُّ يا رحمانُ يا وكيلُ
إني كسولٌ نائمٌ أكولُ

يا مالكي يا خالقَ الأنامِ
أَمِتْ هوايَ قلِّلَنْ منامِي

يا خالقي يا كاملَ الصفاتِ
لك اشتكيتُ كثرةَ الآفاتِ

وأنت ذو الجلال والإكرامِ
فنجِّني وأَوْلِني مَرامِي

منك أروم اليوم أن أكونا
ممّن أَبَوْا لغيرك الركونا

وأن أطيعك بنهج المصطفى
سنّتِه البيضاء يا مَنِ اصطفى

يا غافرَ الذنوبِ يا قريبُ
إني عُبَيْدٌ هاهنا غريبُ

لي هب بذاك ولإخواني جميعْ
سعادةَ الدارين حقًّا يا سميعْ

هَبْ ليَ في هذا الدعآ الإجابةْ
بالمصطفى والآل والصحابةْ

---

31 – من مقدمة كتابه أو صلواته المسماة بـ"مقدمة الخدمة".

32 – الأبيات الآتية من قصيدته مطلب الفوزين.

دليل رابع:

وهو قوله أيضا:

أنا الذي لستُ أميلُ أبداَ
إلى سواك ها هنا ثم غداَ
لم لا وأنت ربِّيَ الوكيلُ
وأنت حَسْبِيَ فلا أميلُ
يا برُّ أنت ربّيَ الوهابُ
وفي فُتوحاتك لا أرتابُ
يا برُّ أنت ربّيَ الحسيبُ
وأنت حسبِيَ فلا أخيبُ
يا عدلُ أنت ربِّيَ المُدافعُ
وأنت حسبيَ فلا أُدافِعُ
يا حيُّ أنت ذو الجلال الواسعُ
وأنت حسبِيَ فلا أنازِعُ
يا ربِّ أنت ذو المحال الواحد
وأنت حسبيَ فلا أكابدُ
يا فردُ أنت ذو العطايا الماجدُ
وأنت حسبِيَ فلا أحاسدُ
مولايَ أنت ذو الهدايا النافعُ
وأنت حسبـــيَ فلا أقاطِعُ
أنت الذي تولِي مُحِبِّيك هُدَاكَ
وأنت حسبيَ فلا أبغي سِوَاكَ

دليل خامس:

وهو قوله:

نفسي وديني ثم أهلي والولدْ
ومسكني لك وديعةٌ أبدْ
وهكذا دنيايَ مَعْ أخراياَ
ففيهما عَنِّيَ اصْرِفِ
الرزاياَ

المرحلة الثالثة: (مرحلة السير والسلوك الإحساني الرائق)

ومن هنا نعرف جيدا أنّ العبد الخديم بهذه الأبيات وبهذه النية الصالحة والتوجه الصادق والعزيمة النافذة والإيمان الكامل والتوحيد الخالص ، لا بد أن ينتهض نحو تجسيده وتنزيله والسعي على تحقيقه من حيث العمل والطاعة ، لأن الأقوال إذا جُرِّدت عن الأعمال فهي عند علماء أهل السنة والجماعة إرجاءٌ وعبارةٌ عن لا شيء.

ولذلك رأينا في سيرة العبد الخديم أنه قد بنى حياتَه كلَّه على عبادة الله وطاعته واتباع رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم والعمل بكل ما آتاه وأقرّه ، قرآنا وسنة ، وإجماعا ، حيث قال العبد الخديم في قصيدته المسمّاة بالتوبة النصوح[33]:

برهان أول:

بنيتُ طاعتيَ باتباعِ
بالذكر والحديث والإجماعِ
سلبتُ بالكتاب والحديثِ
وبالتقى أسلحةَ الخبيثِ

برهان ثان:

ثم قال أيضا:

اللهُ ربِّي وهُدى الإسلامِ

[33] – الأبيات الآتية من قصيدته المذكورة.

ديني وأفضلُ الورى إمامِي

رضيتُ بالإسلام دين لا يزولْ

وبمحمدٍ نبياً ورسولْ

رضيت بالقرآن أُنْسًا ودليلْ

أعبده جلَّ به إلى الرحيلْ

حبانيَ الوهّابُ بالكتابِ

وبرسوله وبالأقطابِ

مشايخي سيّدُنا الجيلاني

والشاذليُّ معه التيجانِي

أئمتي في الفقه مالكُ العلي

والشافعِي والحنَفِي والحنَبَلِي

برهان ثالث:

ثم قال في نهاية القصيدة:

يَقِينِيَ اليقينُ في ذا اليوم

للموتِ فعلةً تَجُرّ لَوْمِي

مُنَّ عليَّ باستقامةٍ وصَلّ

على الذي مَنِ اكْتَفَى به وَصَلْ

تحليل:

وفي هذه الأبيات السابقة يمكننا أن نتلمّس مدى كون العبد الخديم في حياته كلها على العبادة والتقوى والعمل بمقتضى الكتاب والسنة والإجماع ، حيث عبّر عن ذلك بالأفعال الماضية (بنيت) ، و(سلبت) ، و(رضيت) ، الأمر الذي يدل على عبادته وطاعته في ماضيه ، كما أن جملةَ (يقينيَ اليقينُ) بصيغة المضارعة هذه دالّةٌ على حاله ومستقبله في العبادة والتقوى ، حيث أن يقينَه - كما قال - هو الذي يقيه ويحول بينه وبين فعل كل ما يلام به من الذنوب والمعاصي ، وهذا غايةُ التقوى والورع والثبات والعبادة لله سبحانه وتعالى.

برهان رابع:

وإذا أردنا المعرفة والبرهنة على نفس عبادته ونوع هاته العبادة وطبيعتها ودرجتها ومداها نجلب ما قرره العلامة الشيخ محمد البشير في مِنَنِه ، حيث قال:

"فعبادتُه له تعالى عبادةُ إخلاصٍ وحبٍّ ، وعملٍ على التقرّب بلذة المحبّة وصالحِ الأعمال ، يرجو رحمةَ ربِّه ويحب لقاءَه كما في الصحيح (من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه)"[34].

وإذا احتجنا إلى أن نبرهن على هذا أيضا ذهب إلى ما قرره الشيخ أحمد الخديم نفسه في قصيدته المشهورة ب"الصنديد" فنجده ثَمَّ يقول يدعو اللهَ سبحانه أن يُثبّتَ الإيمانَ واليقينَ في قلبه تثبيتًا يجعله إلى درجة المحبة والشوق إلى لقائه جل وعلا ، فكتب مناجيا دائما وداعيا كما هو سلاحه المتسلح به دائما منذ البداية ، والدعاء سلاح المؤمن:

ثبّتْ يقينيَ في قلبي بلا وَجَلٍ حتى أُحِبَّ لِقَاكَ الحقَّ يالله

المرحلة الرابعة: (مرحلة الوصول والاستقلال)

وتبيّن مما سبق ، كما قال العلامة الرباني العبقري العارف بالله الدال عليه بالتأليف والتربية الشيخ محمد البشير تلميذ الشيخ الخديم ومريده وابنه المترجم الأكبر لحياته ، أن العبد الخديم "**أسّس بنيانَ سلوكه على بصيرةٍ منه على التقوى ، وهي الامتثالُ والاجتنابُ كما نزل به الذكرُ ، وبيّنه الحديثُ ، وقرّره الإجماعُ!**

[34] - منن الباقي القديم ، ج.1 ، ص. 181.

إنه عليها عوّل وبها اعتمد فعزّ بها وبزّ ، كما قال: (سلبت بالكتاب) البيت (...) فرضيَ باللّه ربّا ، وبمحمد نبيّا ورسولا ، وبالقرآن أنيسا ودليلا!

ثم عطف على من لهم عليه مِنّةٌ ما ، فقال: (مشايخي سيدنا الجيلاني....) إلى آخر البيتين. وذلك لأن من لم يشكر الناسَ لم يشكر اللّهَ ، فإن الأسباب حقٌ عند ذوي الألباب.!

ثم لَوَّحَ بآخر البيت الأخير من المنظومة بما استقرّ عليه أمرُه بقوله: (.... وصَلِّ على الذي مَن اكتفى به وَصَلَ) بلا واسطة ، فَوَصَلَ! هكذا كان!"[35].

وبهذه الإطلالة الوجيزة ، واعتمادا على ما رأينا وظهر مما سبق ، يمكننا أن نثبتَ ولايةَ العبد الخديم فنقر له بأنه من أولياء اللّه تعالى الذين اتصفوا بصفات الإيمان والتقوى والمحبة والرضى اتصافا كاملا لا شِيَةَ فيه ، كما توفرت لديه خصائصُهم التي هي الاقتداء التام بنبينا وسيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم واتباعه واقتفاء آثاره قولا وعملا.

برهان خامس:

وبذلك أيضا صحت بذلك شهادةُ الشيخ محمد أَبْسَ فَالْ صاحبِ قرية انْكِيكَ فَالْ Nguika Fall وعالِمِها الذي هو "آخر من ضمّ مجلسُه الأعيانَ من العلماء والطلبة قبل تضعضع أركان التدريس"[36] في السنغال ، حيث شهد للعبد الخديم **الإمامةَ والرئاسةَ** فضلا عن **الولاية والعلم والدين** ولوازمه ، وقال: "((لو لم يكن معه شيءٌ إلا علمُه وصحّةُ دينِه ، وكثرةُ عباداتِه وورعُه ، وقوّتُه في القيام بالأوامر واجتهاده ليلا ونهارا في أوامر ربه وسنة نبيه ، من نوافل الخير والذكر والصلاة على النبي ، والتلاوة ، لأهّلته (تلك الصفاتُ) **أن يكون إمامَ قُطْرِه ورئيسَ وقتِه!**))"[37].

تبرير وتعليل:

هذا كله من شأن اللّه تعالى مع عباده وعنايته بهم ، وسنّته في الأرض ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا ولا تحويلا ، وقديما قال الحكماءُ: "**مَنْ طَلَبَ الأمْرَ وَجَدَّ وَجَدَ ، وَمَنْ قَرَعَ البابَ وَلَجَّ وَلَجَ**"[38].

ولمثل هذا عملتِ السيدةُ مريمُ وصنَعتْ ، بحيث إنها – بإيمانها العميق بأنه "لا تجتمع الراحتان: راحةُ الأمِّ في بيت زوجِها وراحةُ الولدِ في حياته"[39]– ، طلبتِ الخيرَ وجَدَّتْ واجتهدتْ فنَصِبَتْ وتعِبتْ وصَبَرتْ وأخلصتْ وأحسنتْ فوجدتِ اللّهَ لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً ولا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ وما هو بظلاَّم للعبيد. ثم قرَعتِ البابَ ولجَّتْ وتمادتْ وأصرّتْ مع إيمانٍ وتقْوى ففتح اللّهُ لها بركاتٍ من السماء والأرض وَالِجَةً داخلةً عليها بسلامٍ.

عناية اللّه السابقة:

فكان كل ما رأيناه وتحدثنا عنه من شأن ولدها العبد الخديم وولايته ، كل ذلك من جزاء اللّهِ – الذي لن يزال أبدا محسنا لعباده– للسيدة جارة اللّه مريم وعملها الدؤوب لنيل رضوان اللّه ورضى قرينها وزوجها الشيخ الإمام والد العبد الخديم رضي اللّه عنهم وقدس أسرارهم ، وكان الجزاءُ مِنْ جِنْسِ العملِ عن سابقة كرامة وعناية من اللّه تعالى القائل في كتابه العزيز: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**

[35] – المصدر نفسه: ج.1 ، صص. 143 – 144.
[36] – المصدر نفسه: ج.2 ، ص. 357.
[37] – المصدر السابق: ج.2 ، ص. 358.
[38]– نهجُ قضاءِ الحاجِ فيما من الأدبِ إليه المريدُ يحتاجُ ، الشيخ أحمد الخديم ، ص. 23.
[39]– السيد جارة اللّه مريم بوصو: ص. 14.

وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٢﴾) [سورة الكهف].